مقدمة في اللامعقول

بقلم باسم عبد الحميد حمودي

لعل تعريفا واحدا لهذا النوع الجديد القديم من الادب ليس سهلا الى الحد الذي نستطيع ان نعرف به الطاقة او القدرة بصورة اكاديمية ، او نعرف علم الجبر او المتطابقات او الهندسة الوصفية . فكلما كانت الموجة جديدة كانت عنيفة يسير معها الكثير وتقف ضدها الصخور والاشناك حتى تفتتها عوامل التعرية الطبيعية.

قد يبدو لكم لهذا الكلام صلة بالجغرافيا الفيزياوية، والامر ليس كذلك قطعا فما اردت قوله ان العلم يتخذ جانبا محدودا واضحا في كثير من الاحيان لاتصاله بمواضيع محددة قد تتطور مختبريا او عن طريق الاستكشافات والتجارب الاخرى ، ومن هنا يستطاع تعريف العلم بتعريفين او اكثر ، ومع ذلك فاننا نجد ان العلوم الجديدة كالانتروبولوجي والاتنولوجي والجيوبولتيكا تلقى مصادمات عديدة في التعاريف لعدم استقرارها كعلوم ثابتة اساسية ، وانما هي انطلاقات من علوم اخرى، فالانتروبولوجي اي علم الاجتماع يعرف تعريفا بسيطا بانه « علم الانسان » وهذا تعريف ساذج وعميق في آن واحد اذ ان هذا العلم ما هو الا كشتالت علوم اخرى فهو يضم خلاصات واستنتاجات من التاريخ والجغرافيا بكل اشكالها ، وعلم النفس والاثاريات والاحصاء الرياضي وغيرها .

وكذلك الامر بالنسبة للجيوبولتيكا التي تضم الجغرافيا العسكرية وما يتبعها من علوم تسويقية وتعبوية وما صحبها من تغيرات من عهد قابيل وهابيل الى عهد انفلاق الذرة بالاضافة الى علاقتها بالاستعمار وتطورات الشعوب في كل المناحي .

فاذا كنا نجد صعوبة في اثبات التعاريف العلمية الجديدة فاننا نجد عناء اكثر في تعريف الادب ، فاذا دخلنا في غمرة تيار جديد من تياراته وهو تيار اللامعقول المرتبط بالعبث ، فمن الطبيعي ان تزداد الصعوبة ، ومع ذلك فاننا لا بد ان نورد عبارة لاحد ائمة اللامعقول وهو يوجين ايونسكو حيث قال :

« قال بعض المعقبين ان مسرحنا هذا ، مسرح اللامعقول والسخرية والانعزال ، ولكن الكتابة نفسها تحد للانعزال ، فعندما اكتشف نفسي فاني اكتشف الاخرين ، واذا بدت لي الاشياء غير معقولة فهذا يعني ان ما يبدو غير معقول لا يرضي عقلي ولا يتفق ورغبات الاخرين ومنطقهم ، ومثلهم ، فهو يعني ايضا ان مسرح اللامعقول الذي يبرز هذا اللامعقول ، يدينه ويتخطاه ، اذ كيف سيبدو لي شيء ما لا معقولا او غير معقول ان لم يكن لدي احساس داخلي بالمعقول ؟ »

والحق ان هذا الرد الذي اعتبرناه تعريفا يذكر امورا عديدة منها :

١ ـ ان اللامعقول لم يتعمد ان يكون اكاديميا بل انطلق الى الحياة ذاتها فاختار المسرح كبداية صعبة لتركيز ذاته .

٢ ـ ان اللامعقول يستند الى ايضاح التناقضات بين المعقول واللامعقول ، بل هو يدين اللامعقول من الامور في حد ذاتها ، ولكنه يتعمد السخرية والاتصاف بصفة العبث عندما يجد شجون الحياة الكثيرة .

٣ ـ ان يرى في المعقول اساسا لانطلاق اللامعقول والا فكيف نتحدث عن شيء بدقة دون ان نعرف تماما نقيضه .

وبعد ، فلا اظن ان ايونسكو قد كان مؤرخا وناقدا عندما تحدث بهذا الشكل فها هو يقول في موضع اخر متحدثا عن اللامعقول والمسرح :

« قوام المسرح هو المبالغة القصوى في المشاعر ، والصراع مبالغة تفك مغاليق ما هو واقع ، ولم افهم ـ من ناحيتي ـ الفارق الذي نقيمه بين الكوميدي والتراجيدي، اذ يبدو لي ان الكوميدي بوصفه الحدث الذي يكشف عن جانب العبث ، هو اكثر اثارة لليأس من التراجيدي ، فليس ثمة مخرج من امر الكوميدي ، واقول مثير لليأس ، لكنه في الحقيقة يتجاوز هذه الناحية ، اليأس والرجاء » (١) .

وقد يبدو هذا « الايضاح » متعلقا بالتكنيك الخاص لمسرح اللامعقول مما يفهم منه خلطه بين نوعين من انواع البناء المسرحي ، لكن الرؤيا الخاصة ، بايونسكو تنطلق واضحة عندما يرى الكوميدي اساسا لشعور الانسان بعمق التناقض وبانه اكثر اثارة لليأس في الوقت الذي يفهم فيه الناس البسطاء ان للمسرح الكوميدي رسالة ابهاج انتقادي فقط .

وفي ذات الوقت نجد ان صاموئيل بيكت ـ وهو ثالث ثلاثة من رواد اللامعقول ـ يؤكد على الدراما لا على الكوميدي في تسديد وايضاح قيم مسرحه ، فعندما يتحدث الناقد والاس فولي عن « مسرح صاموئيل

١ ـ ص ٦ من مقدمة الطبعة العربية لمسرحية الخرتيت اصدار الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة وترجمة عبد الرشيد صادق .

البير كامو

صاموئيل بيكيت

جان بول سارتر

بيكت » يقول : « ان عناصر الزمن والعقل قد طرحت جانبا في مسرح بيكت حتى تتحرر الدراما وتكشف عن عجز الانسان ، والدراما عند بيكت هي ما يعبر عنه العرض المسرحي للجمهور من انعدام المعنى في ميكانيكية الحياة ومظاهرها » .

وعند ذلك يلاحظ سعد اردش الذي ترجم مقال فولي عن بيكيت (٢) ان وجه الشبه واضح بين هذه الوسيلة وما لجأت اليه التراجيديا اليونانية حيث افترضت قوة علوية تسيطر على تصرفات الالهة والبشر ، هي قوة القدر .

ومن هنا يتضح ان اسس اللامعقول قد وضعت على غير اسس معينة الا على اساس اتاحة الفرصة للناس للنظر الى الحياة عبر نظارات طبية جديدة تكشف حدود رؤيا مكبرة ونفاذة وواضحة ، واقعية في آن واحد ولكن الى حد يمتزج فيه الجد بالهزل ولغة الفارس الشعرية الرائعة التي تذكرنا ببرجراك بلغه كافكا القاسية الخائفة المتحدية في قلعته ومحاكمته ومسخه ، بلغة سارتر في حبه للحياة حبا يجعلنا نحمل مسؤوليتها بالم ، بنظرة كامو في شغفه بالواقع شغفا يجعله يخافه ويرفضه حتى الموت، بواقعية غوركي الصامدة الطبقية والرومانسية ، باسلوب جيمس جويس في احتدام ابطاله داخليا .

ان اللامعقول وريث كل التراث الانساني ، وذاك ما سنبرهن عليه بعد حين ، وهو في الوقت ذاته ، ليس الحصيلة النهائية لهذا التراث الضخم ، الرائع والمخيف ، ولكنه موجة جادة من موجاته التي تهب او تنسرح نتيجة تحولات اجتماعية خاصة ومن هنا جاء تعريفه صعبا صعوبة الحياة ذاتها .

العبثي يرفض الحياة رفضا هادفا على طريقته الخاصة ، يرفض بالاحرى هذا النوع الميكانيكي السخيف منها ويراها لامعقولة وتافهة مملوءة بالتناقض غير المبرر وبالازدواج النفسي والذرائعية .

والعبثي لا يحفل بشيء منظم بل يتعمد ان يكون مثاليا في عبثيته ، بعيدا عن البرمجة في كل تصرفاته اليومية ... وقد لا يكون العبثي شاعرا او متأكدا من سلوكه مسلك العبث والرفض ، الا انه يسلك طريقه الحياتي وهو على ثقة من انه يحتج على الحياة التي جاء اليها ومنح فيها اسما خاصا واسم عائلة ومركزا اجتماعيا دون رضاه .

وهناك من دمر حياته وكان شجاعا في ذلك حيث ضحك على العالم بعد ان شعر بانه قد فقد كل ارتباط به .. ذلك هو بطل كولن ولسن في « طقوس في الظلام » فقد كان ثريا وجميلا ، افاكا منحرفا وشاذا ، وكان مثقفا حتى ليكاد يتفجر دماغه حيوية ، وعندما شعر بانه نال اكثر مما تمنى وانه لا حاجة به للمزيد فضل رفض الحياة كلها .

ان هذا الشاب يشبه « كاليغولا » البير كامو من بعض الجوانب ، فقد صمم هذا الامبراطور الروماني الشاذ على ان يفعل ما يشاء وناقش احد مستشاريه حول الحياة والموت والساعة .. ساعة الموت ، وبرهن كاليغولا له انه يستطيع ان يحدد له ساعة منيته .. واستطاع ذلك فعلا بأن امر بقتله في ساعة معينة .. ولكن هذا عبث سطحي لا ينزل الى المعنى العميق الانساني المبرمج — ولو في

٢ — مجلة المجلة القاهرية ص ٥٧ العدد ٧٣ ١٩٦٣

العقل الباطن ـ للعبث ، ومع ذلك ، فقد فعل كاليغولا ما اراد حتى نهاية الشوط .. شوط حياته ، واضعا فلسفة المقدرة الانسانية الفائقة لبعض الناس مع سخف الحياة امامه ، وعندما ادرك لا جدوى حياته وبان قد حصلت له حالة انفصام (وقد يحللها علماء النفس بجنون العظمة او بالمعنى المقابل والمضاد لها وهو الشيزوفرينيا) عن المجتمع الذي يعيش فيه ، فضل ان ينفصم نهائيا وذلك بأن ينتحر .

والواقع ان دراسة كاليغولا ونيرون والحاكم بأمر الله الفاطمي تتطلب نظرة نفسية مزدوجة مع فهم عميق لتطور التاريخ بالاضافة الى النظرة الادبية الواضحة المنبثقة من تجارب اللامعقول ، وقد يبدو هؤلاء البشر شواذا وقد يكون من الطبيعي ان نسخط عليهم وان نفلسف عبثهم بانه غير هادف وسطحي ولكن الذي يهمنا اكثر هو الجواب على هذا السؤال : لماذا فعلوا كل هذا ؟ وليس بحث ذلك هنا على كل حال .

وقد يكون العبثي لا اخلاقيا في كثير من الاحيان ، ويبتعد كثيرا عن مخططاتنا التراثية من قيم واخلاق وعادات ، الا انه في كل تصرفاته يشكل احتجاجا صارخا ومؤلما وعنيفا على حياتنا بكاملها ، هذه الحياة الجديرة بالا تعاش هكذا والا تكون اساسا لشيء .

وقد تنطوي هذه الافكار على سوداوية مرعبة بالنسبة للسذج او المرفهين حياتيا او غير الطموحين ، الا انها لا تعني ، بكل تواضع ، تمزق الشباب الجديد وثقافته المزدوجة وعدم ثقته بالعديد من النظريات الحياتية المطروحة في السوق ، التي تحاول ان تصلح العالم عن طريق الفردية أو القطيعية متناسية الفجوات غير المنسقة التي تملؤها ذاتها وفجوات الحياة غير المبررة نفسها .

ان العبثي المخلص هو لامعقول ايضا او بالاحرى عبثيته ذاتها الناتجة عن معدة ثقافية شابة هاضمة تدفعه للتطلع بجد الى اللامعقول ، والعبثي الجاد انسان مثقف ، يحاول أن يكون سوبرمان حتى في العار الذي يعتقد انه قد تلطخ به عندما اوجد على البسيطة ، انه يحاول ان يثبت ـ قدر استطاعته ـ انه يحتج على كل شيء ، وهو يتمتع ـ حتى وان كان سوداويا ـ بنظرة فلسفية ساخرة بالحياة ، متتبعة لمتناقضاتها المضحكة حتى الجنون ، وهو في الوقت ذاته لا يحاول ان يجبر الناس على اعتناق فلسفة بعينها بل هو يرفض كل الفلسفة رغم كونه فيلسوفا صغيرا على اية حال .

انه يحسد الذين قادوا العالم لفترة ما ، بجنون كهتلر ونابليون ، وبدراية وذكاء كاصحاب البرامج الاجتماعية ، ولكنه لا يعبأ بهم كثيرا ، يحسدهم لانهم آمنوا بشيء فاصبحوا لا يرون اي شيء حياتي الا من خلال النظارة التي ارتدوها ، وتركوه وحده ينظر لكل الناس من كل الزوايا ، فيكتشف متناقضاتهم دون حقد ليتألم فيخر او ينتحر .

انه يرى الحياة من عدة منافذ ، وتلك مصيبته الدائمة ، ولا شك ان اعظم شخص في العالم هو ذلك الذي يخرج الاهة على شكل ابتسامة او نكتة ، والنكتة لا تكون واردة او جذابة حيوية الا اذا حفلت بالتناقض .. مثل الحياة تماما .

***

من مجمل هذه النظرة التي قدمتها للعبثِ بشكل مبسط ، يقف ادباء اللامعقول مقدمين نتاجاتهم التي انتقلت اليوم الى الارض العربية ـ من جديد ـ على يد توفيق الحكيم في « يا طالع الشجرة » (٣) ، واحمد رجب في « الهواء الاسود » ويوسف ادريس في « الفرافير » واهتمت بها بعض وسائل الاعلام .

لكن المسألة : هل ان هؤلاء ادباء صالونات ؟ وهل ان النوازع الطبقية قد تغلبت عليهم بحيث اصبحوا الا يرون الا السخف والضجر والسأم مقدمين نسخا مشوهة لموراقيا وسارتر وكامو ؟

الجواب ليس سهلا ، فمنهم من كان كذلك مثل ايونسكو في بعض الاحيان ومنهم من يرفض ان يكون طبعة ثانية لكل الذين سبقوه بل يفضل ان يكون المحصلة التي هضمت تجارب الجميع مثل بيكت الذي كان ملاصقا

---

٣ ـ هناك اراء تقول ان توفيق الحكيم قد قدم مسرحيته هذه مسايرة للموجة الجديدة للادب وانه قد توقف ، وقد قال طه حسين ان الحكيم كان معقولا حتى في لامعقوله ولذلك فضل تركه والمطلوب من القارىء ان يعيد قراءة كتاب « التعادلية » للحكيم لكي يخرج بنتيجة افضل .

هذا الشهر يصدر

ديوان

اللهب الثائر

مجموعة قصائد قومية ، وانسانية ، وغزلية

شعر بشير قبطي

الثمن ٣٠٠ ق.ل.

لجيمس جويس حياتيا ، فانطلق الى المسرح اكثر من انطلاقه للرواية بعكس جويس .

انهم عابثون ، وهذا صحيح ، ولكنهم يعبثون بشكل ايجابي غير مدمر للحياة ذاتها ، وهم حصيلة تجارب الويلات والحروب وازمة الانحراف الاجتماعي في اوروبا وفي سائر عالم اليوم ، فهم ينظرون الى القنابل الذرية ووسائل التدمير « الحديثة » برعب واشمئزاز ، فيعبرون عن سخطهم هذا بما يستطيعون .

وهذا فردريك دورنيمات يقدم لنا « علماء الطبيعة » ويضع علماء الذرة في مستشفى المجاذيب ويجعلهم قتلة ومجرمين لكي يخرج بنتيجة معينة وهي انتحار احدهم مفضلا التضحية بالفرد المدمر على حساب المجموع المسالم، وحتى ان كان هذا الرأي ذا هدف اجتماعي فان ثنايا المسرحية تشعرنا بسخافة كل الحياة ان تحكم هؤلاء الاوباش العالمين بها بضغط زر او اخر .

ان اللامعقول ، معقول من الاساس ، وهو عابث وجاد في آن واحد ، وقد تختلط فيه الاشياء ولكنه لا يبرر الجريمة الاجتماعية ولا يكون براغمتيا يفلسف الظلم بل هو مع الحياة الفاضلة التي لا وجود لها الان .

انه يبحث عن يوتوبيا جديدة بدون نظرة مثالية ، وهو عندما ينتقد الحياة الحاضرة بعنف ويرينا ضعفها وسخافتها فانما يعني بذلك انه يدعونا الى ان نكون اكثر صفاء وسهولة ويسرا واعمق احساسا بالاذى والطيبة ، ومن هنا كان اللامعقول العابث الجاد رائعا في كل ما يقدمه واكثر اهتماما بالحياة من المعقول ذاته .

اللامعقول والشعر العربي الحديث

اشعر بان تيار اللامعقول بحاجة الى ايضاحات اكثر، مثله في ذلك مثل تيار الشعر الحديث الذي عانى وما يزال يعاني الكثير من المعارضة الجوفاء من الذين يسبحون ضد التيار دون عناية واستيعاب حتى لاسلوب السباحة. فكما اصبح الشعر العربي الحديث اسلوبا تكنيكيا لصياغة الشعر – بالاضافة الى اغنائه للمضمون – وكما ثبت اقدام مدرسته بالعمل على اثراء الشعر العربي عن طريق تخليصه من قيوده بهدم التفعيلة القديمة ، وتشطير الابيات بحيث يمكن صياغة المعاني الحديثة باسلوب سهل قريب الى النفس والى روح العصر ، فقد عمد اللامعقول الى احداث تغيير عقلي في الاسلوب التكنيكي لبناء العمل الادبي وفي طبيعة ومضمون العمل الادبي ذاته .

لقد اصبح اللامعقول في اوروبا ظاهرة حضارية كما اصبح الشعر الحديث في شرقنا العربي ظاهرة حضارية لها اسسها المدروسة الواعية ، وان تخبط بعض الذين بدأوا في الشعر الحديث ، واعتبر خصومهم مقولاتهم او (قصائدهم) دليلا على ضعف هذا النوع من الشعر ، فان ادباء اللامعقول العرب قد بدأوا بدايات جيدة هادفة وبناءة ومخلصة .

لقد قدم توفيق الحكيم « يا طالع الشجرة » مطاوعة منه للموجة الجديدة ، وقدم احمد رجب « الهواء الاسود » غير هازل الا من النقاد الذين يتسرعون احيانا في احكامهم .

اللامعقول عربيا وتراثيا

وقد استند احمد رجب وتوفيق الحكيم ومن تبعهما في اعمالهم الادبية المسايرة لتيار اللامعقول الاوروبي ، الى رصيد ضخم من تراث اللامعقول العربي والاجنبي، الحديث والقديم ، فالاساطير العربية واليونانية كانت لا معقولة تماما ، لانها تصور الحياة بشكل كالذي يتمناه الانسان دون ان يناله .

فعنترة ، البطل العربي الاشم ، الذي فاز بحب ابنة عمه عبله وجاهد طويلا للحصول عليها وقتل (الالاف) في طريقه لذلك يبدو لا معقولا تماما بالنسبة لرواية يوسف ابن اسماعيل .

والمقداد بن الاسود الكندي الذي يقتل الافا من الفرس في معركة واحدة امام كسرى لكي يحصل على مهر ابنة عمه المياسة يبدو لامعقولا اذا قسنا الامور مقياسا واقعيا ، ولكن الذي يبدو لنا ان مؤلف المقداد بن الاسود المجهول كان يرمي الى التأكيد على سعي الانسان وراء الافضل وبشكل عملي – حتى وان كان فرديا – في سبيل خير نفسه ومجتمعه ، بالطريقة التي يفهمها ذلك المجتمع ، مجتمع السيف والشعر والتطاحن القبلي والتناقض الاجتماعي ، مثله في ذلك مثل « ويني » بطلة مسرحية « يا للايام الجميلة » لصموئيل بيكت التي نراها على المسرح غائصة مطمورة في صحراء قاحلة حتى وسطها بادىء الامر ، ثم تبتلعها الرمال حتى عنقها ، لكنها لا تعبأ بمصيرها ولا تعيره انتباها ، بل تبتسم للحياة التي تقول عنها انها « وفيرة الروعة » كانها لا تقاسي منها شيئا يذكر ، بل يكفيها بيت شعر واحد جميل لكي تمجد الحياة وتبتسم لها حتى وهي تنتظر يومها الاخير (٤) .

وقد اكد دعاة اللامعقول ان بيكت قد عاد بالمسرح الى بدائيته ، الى زمن اليونان فهو اذ يقدم لنا بطلا واحدا فقط في المسرحية انما يذكرنا باسخيلوس الاغريقي ، فها هو بروميتيوس في الاغلال يعود من جديد في ثياب امرأة .

واذا كانت اسطورة بروميتيوس لامعقولة عمليا فانها تصور عذاب الانسان اللامجدي في خدمة الالهة بعد ان عصاها بروميتيوس واحب البشر الذين كتب عليهم العذاب والتنكيل فجازته الالهة بشد صخرة الى ظهره لا تسقط عنه حتى تعود ، وصورته اساطير اخرى عملاقا يقف حتى

---

٤ – استعنت بذلك بترجمة حميد رشيد لما قاله الناقد الفرنسي جان لوي بادو عن المسرحية في جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١٨ شباط ١٩٦٤ .

رقبته وسط الماء وما ان يهم باخذ رشفة منه حتى ينـــزل الى الماء وكأن الارض تبلعه وما ان يرتفع العملاق بقدميـه المتعبتين من جديد حتى يرتفع مستوى الماء من جديد (٥).

اما مجنون ليلى الذي يخاطب الجن فـي الصحاري حبا بابنة عمه ليلى فانه يبدو لامعقولا كذلك .. تماما مثل استعانة المسرحيين الاغريق بعناصر الجوقة لافهام الجمهور بعض الاسس التي تسير عليها المسرحيه ، ولتكوين الخلفية المثالية لمسرحيات من هذا النوع .

وان حاول كاتب مجنون ليلى ان يقدم لنـــا الجن ، فقد حاول كاتب المقداد ان يقدمهم كذلـك ، كمـــا حاول اليونان تقديم الجوقة وكما حاول سارتر في «الذباب» (٦) وايونسكو في نهاية مسرحية « الخرتيت» حيث ينتهي كل سكان المدينة الى خراتيت تجعجع فـي الشوارع مسايرة ركب الحضارة الجديدة عن رغبة أو عن كراهية ، الا واحدا يرفض كل ذلك بشدة و .. بالرصاص !.

وان كانت اسبا بهذه الاعمال الادبية مختلفة فاننا نراها تتوحد تراثيا في طريقة المعالجة مع مراعاة غنـــاء الجديد ومحاولات القديم البدائية .

ان اساطير افروديت (ايزيس المصريـــة وعشتار العراقية) وملحمة كلكامش العراقية الخالدة تبدو لامعقولة كذلك وان حاولت ان تقدم لنا تفاسير لما يجري في الطبيعة والحياة من قيم وتغييرات .

وقد قدمت كلكامش صورا ملحمية رائعة لكفـــاح الانسان من اجل الخلود ، تبدو ــ وهو الواقع ــ لامعقولة ولكنها حاولت ان تفسر لابناء جيلها سر الخلود بالطريقـــة التي فهمها كاتب هذه الالواح البابلية .

ان هذه ليست محاولة مبتسرة للربط بيـــن القديم والجديد ، ولكننا نعطي امثلة وعلى القارىء ان يفسرها كما يشاء مع التذكرة بان الحاضر هو حصيلة الماضي واساس المستقبل .. معقولا كان او لا معقول .

واخيرا في عصرنا هذا ، عصر الحياة والصراع مـن اجلها ، عصر القنبلة الذرية وشقاء العالم ، عصر الانتفاضات والثورات والتقدم التقني والفكري ، يبدو مـن المعقول ان تؤثر الحروب والمجاعات والتغييرات العنيفة علـــى الادباء والفنانين فتجعلهم ينظرون بجد الى لامعقولية الحياة والى سعي الانسان الى السراب ، وهو يظن انه قد وصل واحة الامان في الوقت الذي لا يقفون فيه مطلقا بوجه من يحاول ان يقدم لنا صورة سعيدة لهذا العالم القلق الراكض وراء طعامه وناديه وحقوقه .

ان الصورة تتكامل من كـل جوانبها عندما نجـــد اللامعقول ادبيا يسير جنبا الى جنب مع المعقول ، عندمـا نجد مغنية ايونسكو الصلعاء التي تعبر عـــن ميكانيكية الحيـــاة وسخفهـا وآليتها تسير مـع اعمال شتاينبك الكفاحية مثل « افول القمر » و « عناقيد الغضب » وتؤلف قطرات رائعة من جدول ادب الحياة العميق الذي يحوط رباعية لورنس واريـــل الاخاذة الشاعرة التـــي اسماها « الاسكندرية » ويحتضن مسرحيته اللامعقولة عن فاوست وكتابه الاسود عن الجنس .

وعندما نرى دورنمات في « علماء الطبيعة » يتحدث ببساطة وسخرية متشائمة عـــن مجانين ثلاثة يقتلـــون ممرضاتهم في وقت نجد ان الخلفية الرائعة لهذه المسرحية تطرح لنا صراع دول العالم الكبرى نحـــو اسرار الفناء ، اسرار القنبلة النووية تلك التي يصورها الكاتب الاسكندري مصطفى مشعل في مسرحيته « القنبلة الثالثة » في وقت يهزأ ايونسكو بكل ذلك حين يقدم لنا « الكراسي » باحثـا عن التجديد في كل شيء .. حتى في العودة الـى طريقة الديالوج المسرحية القديمة بشكل سيطر على جو المسرحية بكاملها .

قلت ان صورة هذا العصر تتكامل بامتزاج المعقـول باللامعقول ، وهذا امر طبيعي ، كما ان من الطبيعي كذلك ان تمتزج البسمة بالدمعة والفرحة بالكآبة والفنى بالفقـر والجدوى باللاجدوى .. لست هنا مبررا للتعاسة ولكني اجد التناقض تلسكوبا حقيقيا لهذه الحياة ، والمرآة التـي لا ترينا الا وجهنا هي مرآة حقا ولكنها ناقصة تماما بـــل وخادعة فالمرآة الحقيقية هي التي ترينا وجهنا وخلفيتنا وما يدور بين الوجه والخلفية من افكار .. واللامعقول هو الوجه الزئبقي الثاني من المرآة ولكنه ليس المرآة الكاملـة .. فما زلنا نبحث عن مرآة تصور كل حقائقنا كما هي .. وما زال الطريق بعيدا ونحن نسير جادين في البحث عن المرآة الثالثة .

ان هذا يعني ببساطه ان اللامعقول ، مرآتنا الثالثة ، يلتزم خطا حياتيا واضحا وان بدا يكتنفه الاسى وتحوطه الكآبة وتهدهه السخرية المريرة من المرآة الاولى .

اللامعقول .. حضاريا

من الضروري ان نؤكد هنـــا ان العرب القدامى او سائر الذين عاشوا الحضارات القديمـة الاساسية لـــم يكتشفوا اللامعقول بالتعبير الادبي الذي نفهمه الان ، وذلك لسببين ، الاول لان مجتمع البادية العربي ومجتمع البحار القرطاجية واليونانية لم يكونا بحاجة حضارية لهـذا اللون من الادب ، وثانيهما لان الاحساس بالحاجة الادبية يسبق عملية استحضارها واكتشافها فهـــو لا يشبه الاكتشاف الجغرافي .

الحاجة الادبية مصنوعة ولذلك فايجادها : عمليـــة خلق ، اما المكان الجغرافي فهـــو موجود اصلا واكتشافه يتم بالعثور عليه .

ومن المهم والضروري ايضا ان نؤكـد بان اللامعقول مسألة نسبية ، دافعة اليوم وهادمة غدا ، شأنها في ذلك شأن اي تطور ادبي بوجه عـــام ولا مجال مطلقا لشتمها بعبارات جاهزة ومفبركة تثير اشمئزازا واعيا .

---

٥ ــ انظر ترجمة لويس عوض لـ « برومتيوس طليقا » للشاعر شللي

٦ ــ الذباب : لسارتر ترجمة حسين مكي ــ طبعة بيروت

ان الفكرة النقدية التي حملها الرومانسيون عن الكلاسية القديمة قد تسببت في احداث ثورة عنيفة في ميدان ادب عصر الرنسانس ، فركزت لغات القوميات الاوروبية عن طريق كتابة الاثار الادبية بوأسطتها بدلا من اللاتينية ، اضافة لحملها روح الفردية الغاضبة على جماعية القطيع التي كانت الكنيسة تهدف الى تركيزها عبر الاماد .

وافكار المسيح نفسها حملت ثورة النفوس المضطهدة على العسف الروماني ولكنها لم توح للكنيسة بعد الف ونيف من السنين بالقضاء على ثورة اللوثريين والزوينكليين ، الا ان الكنيسة حاولت ذلك دون جدوى ، وانطلقت الافكار المسيحية الجديدة تبشر بمفاهيم اخرى ملائمة لروح العصر المعاش .

ولو انطلقنا الى التاريخ الاسلامي لرأينا الكثير مما يؤكد نظرتنا النسبية للافكار ، فهذا عمر يجتهد بالتعاون مع علي في احداث ثورة فقهية جديدة مستمدا العزم من القرآن الكريم ومن تعليمات الرسول المنفتحة ، فيعلن استبدال عقوبة قطع يد السارق عند حدوث الازمة الاقتصادية بعقوبة الحد .

وهذا علي يخصص رواتب ثابتة لمن حارب مع الرسول ومنهم بلال الحبشي فيأتي الامويون من بعده ليجبوا ضرائب لا شرعية من الموالي .

نعود الى اللامعقول خاتمين بحثنا القصير هذا ، لقد كان جيمس جويس لامعقولا عند كتابته لقصة حياة المستر بلوم في « يولسيس » ، لامعقولا في طريقة تحشيده للافكار واستعماله للرمز وطواعية عباراته المثقلة، ولكنه الان معقول تماما ، وقد لاقت الواقعية الحديثة شتائم « طيبة » من زعماء الرومانسية عندما بدأت تؤكد ذاتها ، ولا زال عندنا من يتبنى مذهب الفن للفن شاتما « الفن للمجتمع » لعدم معقوليته بالنسبة له ، ولكن هل توقفت الواقعية أم استطاعت ان تزدهر وتتطور من خلال صراعها مع المثل والطرق والادبية العتيقة لتنتصر ؟ الجواب واضح في اتجاهات الادب العالمي المعاصر .

كذلك المسأله بالنسبة للامعقول ، فهو ظاهرة ادبية اسلوبية وفكرية حديثة نشأت نتيجة ظروف اجتماعية معينة ، وهي لا تعني الديمومة المطلقة ، انما هي علامة على درب الحياة الادبية الواسع المثقل ، تزول بزوال اسبابها كما متحفت الافكار والطرق الادبيه القديمة في كتب وتواريخ النقد الادبي .

اما الان فاللامعقول باق كظاهرة حضارية معاشة تعبر عن واقع معين .

قد يقول البعض ان هذا الواقع لا يجد له مكانا طبيعيا في ادبنا ، لعدم التهيئة المناخية له ، والجواب على ذلك هو نفس الجواب على كل القضايا الحديثة التي دخلت بلادنا الساعية نحو النور ، والتي استيقظت مثقلة بغبار الصحراء عند اول دوية مدفع فرنسي في صحراء امبابة عندما وقف نابليون يبتسم لابي الهول متحديا .

ان الحضارة الجديدة تتحدانا ولا بد لنا ان نستجيب ولن تكون استجابتنا سلبية الا في مراحلها الاولى .

وختاما يقول الناقد كنيث هاملتون : انه على الرغم من أن ابطال صامويل بيكيت يكنون للكون كراهية مشبوبة، فهم يتميزون بخاصية تستحق التنويه بها وهي ستروق في اعين البشر جميعا ، ان ابطاله يناقشون ابدا محنة وجودهم دون ان يتركوا هذا الوجود وشأنه يتصرف فيهم كيفما يشاء ودون ان يسمحوا للعدم بان يبتلعهم في غياهبه وهم صامتون ، فابطال صامويل بيكيت بالرغم منهم ومنه يفتحون منافذ للرجاء الذي لا يمكن ان يختفي من الارض وان طال غيابه عنها (٧) .

ان هذه الكلمات تثبت بصورة او باخرى ان اللامعقول فن منفتح على الحياة .. سلبي وايجابي مثل الحياة تماما، وعلى ذلك فلا داعي للشتائم الموجهة التي يتقنها دائما محاربو الجديد في كل زمان ومكان ... فعليهم ان ينحنوا للعاصفة والا فقد تقلعهم من أصولهم كما تفعل التورنادو وان يتقبلوا اللامعقول كما يتقبلون الاشتراكية ... رغبة ام رهبة .

باسم عبد الحميد حمودي

---

٧ ـ « بيكيت عند نقاد الغرب » مقال لرمسيس عوض في مجلة الثقافة « القاهرية » العدد ٥١ ٧ تموز ١٩٦٤ .